فصاحة الكلمة

عُرّفت فصاحة الكلمة بالنحو التالي:

خلوصها من أُمور ثلاثة:

١. تنافر الحروف.

٢. الغرابة.

٣. مخالفة القياس اللغوي المستنبط من استقراء اللغة.

أمّا الأوّل: فهو عبارة عن كون الكلمة ثقيلة على اللسان بحيث يعسر النطق بها، نظير (الهعخع)، فقد جاء في قول أعرابي سُئل عن ناقته، فقال: تركتها ترعى الهعخع، وهو نبت أسود، وهذه الكلمة متنافرة نهايته، ودونها في التنافر لفظة (مستشزرات) بمعنىٰ مرتفعات في شعر امرئ القيس[١]، يقول:

غدائِرُهُ مُستشزِراتٌ إلى العُلىٰ تَضلُّ العقاص في مُثنّىً ومُرسَلِ[٢]

فإنّ كلمة مستشزرات ثقيلة على اللسان، ولو قال: مستشرف لزال ذلك الثقل، وأمّا كونه ثقيلاً فهو واضح لمن نطق به .

---

١. هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، أشهر شعراء العرب على الإطلاق، يماني الأصل، مولده بنجد نحو ١٣٠ قبل الهجرة، اشتهر بلقبه. له ديوان شعر مطبوع، وكتب الأدب مشحونة بأخباره. يعرف بالملك الضليل، وذي القروح لما أصابه في مرض موته وهو بأنقرة في طريقه إلى فلسطين، فأقام إلى أن مات بها سنة ٨٠ قبل الهجرة. الأعلام: ١٢/٢.

٢. غدائره: ذوائبه، مستشزرات: مرتفعات أو مرفوعات: تضلّ تغيب، العقاص: الخصلة المجموعة من الشعر، والمُثنّى: المفتول. يعني: أنّ ذوائبه مشدودة على الرأس بخيوط وأنّ شعره ينقسم إلى عقاص مثنّى ومُرسل، والأوّل يغيب في الأخيرين. والغرض: بيان كثرة الشعر. مختصر المعاني: ١٥.

وأمّا الثاني: فالمراد به كون الكلمة غير ظاهرة المعنىٰ ولا مأنوسة الاستعمال، وذلك كاللفظين التاليين:

تكأكأتم، وافرنقعوا.

حكي أنّ عيسى بن عمر النحويّ[1] حين سقط من الحمار واجتمع الناس حوله، خاطبهم بقوله: مالكم تكأكأتم عليَّ كتأكأكُم عَلىٰ ذي جِنّةٍ، افرنقعوا.

ويريد: مالكم اجتمعتم عليّ كاجتماعكم على ذي جِنّة، تفرّقوا.

ترى أنّ الكلمتين في كلامه وحشيّتيان غير مأنوستين بخلاف ما إذا قيل: اجتمعتم، تفرّقوا.

وأمّا الثالث: أعني: المخالفة للقانون المستنبط من تتبع كلام العرب فقد مُثِّل له بلفظ: الأجلَل، بفك الإدغام في قول أبي النجم العجلي[2]:

الحمدُ للهِ العليّ الأجلَلِ الواحدِ الفَرْدِ القديمِ الأوّلِ

يقول جلالُ الدين السيوطي في تعريف فَصاحة الكلمة:

فَصاحةُ المفردِ أنْ لا تنفرا حروفُه كهعخعٍ واستشزرا

---

١. هو عيسى بن عمر النحوي، أبو عمرو البصري الثقفي، كان من قرّاء أهل البصرة إلّا أنّ الغريب والشعر أغلب عليه. مات سنة تسعة وأربعين ومائة. تهذيب التهذيب: ٨/ ٢٠٠ برقم ٤١٦.

٢. هو الفضل بن قدامة العجلي، أبو النجم، من بني بكر بن وائل، من أكابر الرجّاز ومن أحسن الناس إنشاداً للشعر. نبغ في العصر الأموي، كان يحضر مجالس عبد الملك بن مروان وابنه هشام، توفّي سنة ١٣٠ هـ. الأعلام: ١٥١/٥.

وعـدمُ الخُـلفِ لقـانون جليٍّ كـــالحمدُ لله العـليِّ الأجـلَلِ
وفـــقدُه غـرابـةً قـد ارتـجىٰ كـفاحماً وَمَـرْسِناً مُسَـرّجاً[1]

وقوله: قد ارتجىٰ أي أغلق لا يُدرى معناه. وقوله: مُسرّجاً يشير إلى قول العجّاج:

ومُقْلةً وحاجِباً مُـزَجَّجاً وفاحِماً وَمَرْسِناً مُسَرّجاً

فالمزجّج بمعنى المدقّق، وهو يناسب وصف الحاجب، وفاحماً بمعنى الشعر الأسود، يصف به شعره، بقي الكلام في وصف الأنف، فيقول: ومرسناً مسرجاً أي أنفاً مسرّجاً، ومن المعلوم أنّ المسرّج إذا أُخذ من السراج فهو بمعنى اللمعان، وإذا أخذ من قولهم: السيف السريجي، يكون معناه: دقيقاً ومستوياً، وعلى كلٍّ تقدير فالكلمة لا تخلو عن غرابة، لتردّدها بين معنيين.

فصاحة الكلام

عرّفت فصاحة الكلام بقولهم: خلوصه من العيوب الثلاثة التالية:

١. ضعف التأليف.

٢. تنافر الكلمات.

٣. التعقيد بمعنى كونه غير واضح الدلالة.

وعلاوة على ذلك يجب أن يكون مشروطاً بفصاحة الكلمة، وكأنّ

---

١. عقود الجمان: ٤.

فصاحة الكلمة شرط لفصاحة الكلام أيضاً، وذلك لأنّ الكلام يتشكّل من الكلم، فلو كانت الكلمة غير فصيحة لا يكون الكلام فصيحاً أيضاً، وإليك تبيان التعريف:

أمّا الأوّل: فيراد من ضعف التأليف كون الكلام على خلاف القانون النحوي المشتهر بين أهل اللغة، كما في قوله: (ضرب غلامَهُ زيدٌ) فالضمير يرجع إلى زيد وهو من قبيل الإضمار قبل الذكر، وهو غير جائز إلّا في موارد خاصّة، فكأنّ ضعف التأليف هنا يماثل «مخالفة القياس في فصاحة الكلمة».

وأمّا الثاني: أي التنافر بأن تكون الكلمات عند الاجتماع ثقيلة على اللسان، كما في قول القائل:

وَقَبرُ حَرْبٍ بِمَكانٍ قَفْرِ وَلَيسَ قُربَ قبرِ حَربٍ قَبرُ[1]

والشاهد على ذلك أنّه لا يتهيّأ لأحد أن ينشده ثلاث مرات فلا يتتعتع أو يتردد.

وقريب من ذلك قول أبي تمّام[2]:

---

١. قبر حرب يعني به حرب بن أميّة بن عبد شمس، والد أبي سفيان وجد معاوية بن أبي سفيان. والقفر من الأرض: المفازة التي لا ماء فيها ولا نبات، ودار قفر: أي خالية من أهلها. قال القونوي في شرح تلخيص المفتاح: وفي البيت الإقواء، وهو من عيوب الشعر. وإنّما قلنا فيه الإقواء؛ لأنّ البيت مصرع، وكلّ واحد من المصراعين فيه كبيت كامل. راجع: شرح الشافية: ٤٨٧/٤؛ البيان والتبيين: ٤٩/١؛ الأعلام: ١٧٢/٢.

٢. هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائي، أبو تمّام الشاعر الأديب، أحد أُمراء البيان. ولد في قرية جاسم من قرى حوران بسورية سنة ١٨٨ هـ وقيل: ١٩٠هـ رحل إلى مصر، واستقدمه المعتصم إلى

كـريمٌ مـتى أمْـدَحْه أمْـدَحْه والوَرى
مَـعي وإذا مـا لُـمْتُهُ لُـمْتُهُ وَحْـدي[1]

قيل: إنّ وجه التنافر هو الجمع بين الحاء والهاء لتقاربهما، ولكنّه ضعيف لوروده في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾[2] بل التنافر ـ في البيت ـ هو في تكرار (أمدحه). وكان تنافر الكلمات هنا يماثل «تنافر الحروف» في فصاحة الكلمة.

وأمّا الثالث: أي التعقيد وكون الكلام غير واضح الدلالة.

والفرق بين الغرابة في الكلمة،والتعقيد في الكلام واضح، فلأنّ الأوّل يرجع إلى كون اللفظ غير واضح المعنى، وأمّا الثاني فالمفردات واضحة المعنىٰ، غير أنّ المقصود الجدّي غير واضح كما سيتبيّن.

ثم إنّ التعقيد إمّا لفظي، وإمّا معنوي.

أمّا الأوّل: فربّما يكون السبب وجود تقديم وتأخير في الكلام، كقول الفرزدق[3]:

☜ بغداد، وولي بريد الموصل، وتوفّي بها سنة ٢٣١هـ، له ديوان شعر، وديوان الحماسة. الأعلام: ١٦٥/٢.

١. البيت من قصيدة يمدح فيها أبا المغيث موسى بن إبراهيم الرافقي. ومعنى البيت: أنّ الناس جميعاً يمتدحونك معي، وإذا ما لمتك خُلّفت وحيداً لم يشاركني مشارك، لمعرفة الناس فضلك. شرح ديوان أبي تمّام: ٢٣٩ برقم ٥٦.

٢. الإنسان: ٢٦.

٣. الفرزدق هو همّام بن غالب بن صعصعة التميمي الدارمي، أبو فراس، شاعر من أهل البصرة، كان ☜

وَ ما مِثْلُهُ في النّاسِ إلّا مُمَلّكاً أبــو أُمِّــهِ حــيٌّ أبُــوهُ يُـقَارِبُه

فإنّ الشاعر يريد مدح إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي وهو خال هشام بن عبدالملك بن مروان الأموي، ويقول: إنّه ليس للممدوح من يشابهه ويماثله إلّا ابن أُخته، يعني: هشام بن عبدالملك.

وأنت ترى أنّ المفردات واضحة المعنىٰ لكن فهم هذا المعنى من البيت المذكور مشكل، وما ذلك إلّا للأسباب التالية:

١. أنّه فصل بين المبتدأ ـ أعني: أبو أُمّه ـ وبين الخبر ـ أعني: أبوه ـ بكلمة حيٌّ.

٢. فصل بين الموصوف ـ أعني: حيّ ـ وصفته ـ أعني: يقاربه ـ بالأجنبي الّذي هو أبوه.

٣. قدّم المستثنىٰ ـ أعني: مُملّكاً ـ على المستثنىٰ منه ـ أعني: حيّ ـ.

وأمّا الثاني: فمن موارده الكنايات البعيدة، مثلاً إذا كان الكلام واضح الدلالة على المعنىٰ الملزوم ولكن كان الانتقال منه إلى اللازم، الّذي هو المقصود بالذات غير ظاهر، كقول العباس بن الأحنف[1]:

سَأطلُبُ بُعْدَ الدارِ عَنكُم لِتَقرُبوا وتسكُبُ عيْناي الدُّموعَ لِتجْمُدَا

☜ شريفاً في قومه، عزيز الجانب، وهو صاحب الأخبار مع جرير والأخطل، ومهاجاته لهما مشهورة. توفّي سنة ١١٠هـ. الأعلام: ٩٣/٨.

١. هو العباس بن الأحنف بن الأسود الحنفي، أبو الفضل، شاعر غزل أصله من اليمامة (في نجد) وكان أهله في البصرة وبها مات أبوه، ونشأ هو ببغداد وتوفّي بها، وقيل بالبصرة سنة ١٩٢هـ، له ديوان شعر مطبوع. الأعلام: ٢٥٩/٣.